٩٩/٤/١٥

الفكر العربي

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الحادي والثلاثون كانون الثاني (يناير) - آذار (مارس) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عباس — د. شكري فيصل

الشيخ عبد الله العلايلي — د. عمر التومي الشيباني — د. عبد السلام المسدي

د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة

رئيس التحرير
رضوان السيد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٨٠٠٤
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

ص.ب المجلة : ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد : ١٤/٥٣٠٠

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٥١١
التاريخ / ٢٠١٤/٢/١٥

الثمن : ٢ ل.ل. أو ما يعادلها

المشرق في أدب الرحالة الفرنسيين

بين حربين ١٩١٤ و ١٩٣٩

د. جان جبّور

مع مطلع هذا القرن، أصبح أدب الرحلة أدباً مغموراً، وقد تساءل الكثير من النقّاد إذا كان هذا النوع الأدبي لا يزال يتمتع بمقوّمات الحياة. فالتغرّب الذي كان يوحيه أدب الرحلة أصبح مفقوداً، ولم يعد الرحّالة سوى واحد من ملايين السائحين الذين يقصدون المناطق البعيدة بقصد الترفيه. فتطوّر المواصلات وسرعتها قرّبا المسافات بين المدن البعيدة، وأكثرا من تخالط الناس. فأصبح السكان في أية بقعة من العالم يقلّدون الأوروبي والأميركي. لذا، انحط قدر العادات الفولكلورية وطغت الحداثة. ونظراً للمكننة والصناعة التي اجتاحت العالم فقدت الطبيعة سحرها، لتحل مكانها المعامل والمصانع والبنايات الشاهقة وفقاً لحاجات البلاد. فأصبح العالم متشابها إلى حدٍ ما، بفضل سرعة المواصلات ووسائل الإعلام التي تنقل الخبر بصورة أكثر وضوحاً وأكثر دقة وسرعة من الرحّالة. من هنا، فإن المبالغة والغرابة التي كان يلجأ إليها الرحّالة لدغدغة أحلام أقرانه القابعين في منازلهم لم تعد مقبولة وجدّية. فالتكلم على أدب الرحلة الى الشرق في مطلع هذا القرن مهمّة محفوفة بالمشاكل، إذ إن الشرق الذي بقي مسرحاً للخيال طيلة أجيال أصبح فجأة تحت الانتداب الأوروبي، وأصبح مصدراً لمشاكل ومتاعب كثيرة هزّت مشاعر الأوروبيين.

ولا بد، قبل الكلام على مرحلة ما بين الحربين، من عودة سريعة إلى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع هذا القرن، حيث قام مجموعة من الرحّالة الفرنسيين بمحاولة تهديم وتهشيم وتشويه لصورة الشرق التي تركها الرحّالة في القرون السابقة. فبنظرهم كل ما قيل عن الشرق هو أوهام أو سراب. وهذه الحملة، تعود جذورها إلى عام (١٨٥١) حيث نقرأ في كتاب **كزافييه مارمييه** «رحّالة جدد»: «لقد كُتب الكثير عن الشرق إلى درجة أن أيَّ متحمّس للعودة إلى هذا الموضوع سيُتّهم بالشجاعة الرعناء وستواجهه الأسئلة المحرجة: ما بالكم تعودون للكتابة عن هذه المناطق التي اجتازها الرحّالة في كل اتجاه، ووصفت بدقة متناهية من كل وجوهها! هل بقي

هناك مشهد عن العادات الشرقية لم يُوصف بعد، أو عمود لم يُقس، أو لوحة أثرية لم تُشرح؟ أما شبعنا من تأمل روائع البوسفور وآثار سورية ونخيل النيل؟ ألم ندخل في أقبية الأهرام المظلمة التي تدب فينا قشعريرة الموت؟ ألم نصل حتى إلى مداخل المقصورات التي يحرسها الخصيان؟ هل من الممكن أن تفيدونا بشيء جديد؟! ألسنا نعرف الشرق عن ظهر قلب؟ »[1].

إنما هذا التيار المعارض لأدب الرحلة في الشرق أخذ بعداً جديداً، ابتداء من عام (١٨٨٠)، حيث قامت مجموعة من الرحّالة بإصدار كتب عدة تبرز وجه الشرق السيء؛ من بين هؤلاء نذكر: أدمون آبو[2]، مكسيم غوفروي[3]، جورج مونتبار[4]... وغيرهم.

وقد بلغ هذا التيار ذروته في مطلع القرن الحالي، حين قام **لويس برتران** برحلة إلى الشرق كانت ثمرتها كتاباً هجائياً أسماه « السراب الشرقي »، وأصدره عام (١٩١٠). فالشرق بنظره ليس سوى مزبلة؛ ولم يلاحظ أثناء رحلته سوى الأوساخ والتعفُّن. وبدل المشاهد المثيرة للخيال، ينقل مشاهد مثيرة للقرف: « في الفرن، شاهدت ولداً ينام عرياناً على الخبز، بينما الذباب يتأكل وجهه ويلتصق على حنايا جفونه الوسخة. ثم رأيت حماراً أرعناً يسرق رغيفاً كان يشكّل وسادة للولد، ويفرّ بعدها على وجه السرعة »[5].

فالشعب الشرقي بنظره ليس سوى ترسُّبات الأوساخ الانسانية، أو قطيعاً من الناس يشكو من سوء التغذية وسوء المسكن، ولا يميّزه إلاّ القليل عن قطعان الحمير والكلاب التي تجاوره.

وفي غمرة نشوته، ينسى برتران الموضوعية التي يجب أن يتحلّى بها أدب الرحلة، فلا يستطيع كبت مشاعره العدائية، لذا ينتقل إلى الهجاء المباشر للشرق: « الشرق؟ إنكم لا تعلمون حقيقته! إنه القذارة والسرقة والانحطاط والاحتيال والقساوة والتعصُّب والحماقة! نعم، إني أكره الشرق! إني أكره الشرقيين؛ أكره أولئك المعتمرين بالطرابيش والمتلهّين بالسبحات »[6].

إضافة إلى هذه الحملة المغرضة، واجه أدب الرحلة بعد الحرب العالمية الأولى صعوبات ومشاكل كثيرة أفقدته الكثير من مقوّماته. فالرحلة لم تعد حدثاً مهماً، والمخاطر والإزعاجات التي كان يتكلّم عنها الرحّالة القدماء لم يعد لها وجود. فقد حلّت محلّها سهولة الذهاب في الوقت المحدّد وإلى المكان المحدّد. لهذا السبب، ورغم تكاثر كتب الرحلات لم يعد لهذا الأدب النكهة الخاصة التي تحلّى بها في القرون السابقة. ويبدو أن العجائب والغرائب التي كان يصوّرها الرحّالة عن الشرق قد ولّت إلى الأبد. فأهم عامل ساهم في تهديم هذا النوع الأدبي هو السرعة. وعامل السرعة كان مبعث فرح لبعض الرحّالة، بينما رأى البعض الآخر أنه عامل سلبي. **فهنري بوردو** مثلاً في كتابه « في جبل الدروز » يهلّل للسرعة، معتبراً إياها إنجاز العصر. ففي رحلته

في **المنطقة الثقافية للهلّينية**»[٤] . «على المستشرق، إذا شاء أن يستوفي شروط الاستشراق، أن ينطلق من العالم الكلاسيكي. لكنه يقع في موقف معاد للتاريخ، إذا صرف ناظريه عن حقبة بكاملها تقع بيننا وبين الكلاسيكية الصافية. فالانسان الكلاسيكي (أومو كلاسيكوس) والانسان المستشرق (أومو أورينتليس)، يصبح في وقت من الأوقات ضرباً من الذكرى أو التجريد». الانسان المجدّد (أومو نوڤوس) للهلّينية هو وحده «الحي»، وذلك بوصفه نتاجاً «لحركات حيّة لا لحركات تصطنع اصطناعاً من قبل العلماء. فكلها كانت من نتاج قوة تاريخية أصيلة». من هنا «فنحن لا ندرس هذه العوالم لكي نصفّف سلسلة جديدة من الظاهرات في واجهة المتحف البشري، أو لكي نصف أشكالاً غريبة وعجيبة. بل ندرس هذه العوالم لكي نحيي مراحل الاتحاد الوثيق بين تراثين مختلفين، بأن نسعى إلى تمييز أنماط ووظائف واحد منها بعينين صار نظرهما ثاقباً بفعل تأمل ظاهرات الثقافة الشرقية في أتمّ تعابيرها، مع إمكانية الادلاء بتقييم أصح، وبحساسية أشدّ»[٥] ... إلخ. هل نبالغ إذا تحدثنا هنا، عن رومانسية «المحورية الاروبية»[٦]، التي تحثّ على التقصّي العلمي، بينما نجد عند أمثال «ريمون شواب» موضوعات مماثلة[٧]، وإن تكن الصورة التي قدمها لنا هذا الأخير لستة مستشرقين انكليز: (س اولكي، ف. جوش، أ. بالمر، أ. براون، ر. نيكلسون، وأ. اربري) تسير، من حيث الجوهر، في نفس الاتجاه. ولكي ينبغي أن نرى جيداً أننا ما زلنا ـ تاريخياً ـ في عصر الهيمنة الاوروبية. وأن على النقد الذي يتناول الماضي أن يأخذ هذه النقطة بعين الاعتبار.

نشأت عن هذا التيار الفكري، عن هذه الرؤية للاستشراق، المؤلفات الرئيسية لأهم المدارس الاستشراقية في الغرب (فرنسا، بريطانيا، المانيا، هولندا، اسبانيا، ايطاليا، روسيا، الولايات المتحدة)؛ وكانت مساهمتها متعددة وخصبة. ويميز خبير المكتبات اللبناني **يوسف أسعد داغر** بين ثمانية عناصر إيجابية في الدراسات العربية الاسلامية: دراسات الحضارات القديمة، تجميع المخطوطات العربية في المكتبات الاوروبية، إنشاء لوائح بالمخطوطات، نشر مؤلفات عديدة مهمة، إلقاء درس منهجي ـ بهذه الطريقة ـ على العلماء الشرقيين، تنظيم مؤتمرات للاستشراق، كتابة بعض الدراسات ـ التي كثيراً ما تكون ناقصة ومغلوطة من الناحية اللغوية، لكنها متماسكة ودقيقة من حيث المنهج ـ وأخيراً «فقد ساهمت هذه الحركة في تنبيه الوعي القومي في مختلف بلدان الشرق، وفي تنشيط حركة النهضة العلمية واليقظة الفكرية»[٩]. سوف نرى ماذا يعني ذلك، بعد قليل.

غير أن هذه الرؤية للاستشراق التقليدي لم تكن الرؤية السائدة. أو أنها شكلت بالأحرى، القسم الجوهري من العمل الذي تمّ داخل الجامعات والجمعيات العليمة بالأمر، دون أن تحيط بكل جوانب العمل الذي أنجز ونشر في هذا الإطار وغيره، هذا من جهة؛ أمّا من الجهة الاخرى، فإن هذا العمل نفسه كان مشبعاً إلى حد بعيد جداً بالمسلّمات وبالعادات المنهجية وبالمفاهيم التاريخية ـ الفلسفية التي كان لها أن تحبط، في كثير من الأحيان، نتائج

الأعمال الدؤوبة وقيمتها العلمية، وأن تؤول، من الناحية الموضوعية، بعدد كبير من العلماء المستشرقين الأقحاح إلى المواقع الفلسفية ـ السياسية التي يحتلها الفريق الآخر من العاملين.

كان هذا الفريق الثاني مؤلفاً من خليط من الجامعيين ورجال الأعمال والعسكريين والموظفين الاستعماريين والمبشرين والصحفيين والمغامرين، الذين كان هدفهم يقتصر على التعرُّف إلى الحقل المزمع احتلاله، والولوج إلى أفئدة الشعوب من أجل تأمين انصياعها للقوى الاوروبية على نحوٍ أفضل. «إن زاوية النظر التي اعتمدها المكتب العربي» كما يقول **جاك بيرك** بحق، قد جعلت «دراسة مجتمعات شمال افريقيا موجهة منذ البداية، علماً أنها كانت تُدعم وتُزوَّد بما تحتاج اليه، في نفس الوقت الذي يُعمل فيه على الحد من نشاطها»[١٠]. يستطيع المرء أن يحزر بأيِّ اتجاه كانت تُوَجَّه... والظاهرة عامة، لأنها عنصر تكويني من عناصر العلم الاجتماعي للبلدان الاوروبية في زمن الاقتحام والتمركز الامبرياليَّيْن: الاستشراق الايطالي في عهد موسوليني، الاقتحام النفساني ـ السياسي الذي يشهد عليه «ت. لورنس» ومدرسته؛ وقبل ذلك، التقارير المتبادلة بين المبشِّرين، والأوساط التجارية والمستشرقين (التي يشهد عليها بشكل خاص المؤتمر الاقليمي الثالث للمستشرقين في ليون، ١٨٧٨)... إلخ؛ والأمثلة كثيرة، بل غزيرة، ذلك أننا لا نزال في عصر الذل، في عصر الاحتلال، قبل الثورات التحررية الكبرى[١١].

إلاَّ أنه، هل يسعنا أن نتحدَّث، رغم هذه الفوارق الفعلية، عن نوع من التشابه في الشعور العام والمناهج والادوات المستعملة من قبل هذين الفريقين من المستشرقين التقليديين؟

نجيب بالإيجاب: فوحدة المصلحة، لا المصالح فقط، أساسية تجاه الآخر، تجاه هذا العالم الذي سيُسمَّى فيما بعد «ثالثاً» بالنسبة للتاريخ الذي يصنع نفسه.

□ **التصوُّر العام**، أي رؤية الشرق والشرقيين من قبل الاستشراق التقليدي:

١ ـ على صعيد **طرح المشكلة**، صعيد **المَشْكَلَة**، يعتبر الفريقان أن الشرق والشرقيين «موضوع» للدراسة، مرسومٌ بالغيرية ـ شأنه شأن كل ما هو آخر، سواء كان «ذاتاً»، أم «موضوعاً» ـ لكنه مرسوم بغيريَّة تكوينية، ذي طابع جوهري، كما سنرى على الفور. «موضوع» الدراسة هذا يوصف، كما يليق به، بأنه سلبي، لا يساهم في الأمور، ممهور بذاتية «تاريخية»، فضلاً عن أنه فوق كل ذلك، معدوم النشاط، معدوم الاستقلال، معدوم السيادة تجاه نفسه: الشرق أو الشرقي الوحيد، أو «الذات» الوحيدة، التي يمكن التسليم بها، في النهاية القصوى، هو الكائن المستلب، المؤلَيْن، بالمعنى الفلسفي، أي الذي إذا قيس بالنسبة إلى ذاته كان أمراً آخر غير هذه الذات. إنه الكائن المطروح والمفهوم والمحدد ـ والمفعول به ـ من قبل الغير.

٢ ـ على صعيد **الموضعة**، يتبنَّى الفريقان تصوُّراً جوهرياً لبلدان الشرق المدروس وأممه وشعوبه، وهو شعور يتجلَّى عبر نُميطة إثنية (عرقية) موصوفة. ولم يلبث الفريق الثاني أن حوَّل هذه الإثنية إلى عنصرية.

فالمستشرقون التقليديون يرون أن هناك جوهراً ـ يوصف أحياناً بوضوح وبتعابير ميتافيزيقية ـ يتكوَّن منه الكنه الثابت المشترك لدى جميع الكائنات المعنية. ثم إن هذا الجوهر يوصف في آن معاً بأنه «تاريخي»، لأنه يعود إلى التاريخ السحيق، وبأنه لا تاريخي، لأنه يجمِّد الكائن ـ «موضوع» الدراسة ـ في خصوصيته الثابتة التي لا تخضع للتطور والتحول، عوضا عن أن يجعل منه ـ كسائر الكائنات الأخرى، من دول وأمم وشعوب وثقافات ـ نتاجاً أو حصيلة لمنحى القوى الفاعلة في مجرى التطوُّر التاريخي.

فيفضي الأمر هكذا إلى نمطية مبنيَّة على خصوصية فعلية، لكنها منزوعة من التاريخ؛ ـ وبالتالي، فهي تعتبر بمثابة الكائن المعطى الذي لا يُمسّ ولا يُقرب ـ تجعل من «الموضوع» المدروس كائناً آخر تكون الذات الدارسة بالنسبة إليه ذاتاً مفارقة متعالية: وهكذا يكون لدينا «إنسان صيني، وإنسان عربي (أومو صينيكوس، أومو أرابيكوس) بل وإنسان مصري، وإنسان افريقي (أومو إيجيبتيكوس، وأومو أفريكانوس)[١٢]، ولم لا. إذ إن الانسان ـ «الانسان السوي» طبعاً ـ هو الانسان الأوروبي الذي عاش في العصر التاريخي، أي منذ العصور اليونانية القديمة. وهكذا يرى المرء إلى أيِّ حدٍّ كان الارتباط وثيقاً ـ من القرن الثامن عشر حتى العشرين ـ بين سلطوية الأقليات المالكة التي فضحها «ماركس» و«انجلز»، والمحورية البشرية التي نسفها «فرويد»، وبين المحورية الأوروبية، في ميدان العلوم الانسانية والاجتماعية، لا سيما تلك التي تتصل اتصالاً مباشراً بالشعوب غير الأوروبية.

ولا نجد بين أساتذة الاستشراق التقليدي من يعبِّر عن هذه الموضوعة، خيراً من العالم الكبير «**لويس ماسينيون**» (١٨٨٣ ـ ١٩٦٢) عندما يتحدث عن العرب الاعزَّاء على قلبه الصوفي. ففي المقالات التي كتبها قبل وفاته بفترة قصيرة، يتحدَّث «ماسينيون» عن هذه الموضوعة كما يلي: «بالنسبة لمشكلة المستقبل العربي، اعتقد أنه ينبغي طرحها من ضمن السامية. أعتقد أن في صلب الصعوبات لدى العرب، هناك هذه الصعوبة الدرامية. هذا الكره القاتل الذي يعتمل لدى الأخوين اسرائيل واسماعيل. واعتقد أنه ينبغي تخطّي هذه الصعوبة. فهل يسعنا الوصول إلى تخطيها؟ اعتقد أنه من الواجب أن لا نغالي في طرحها من الزاوية الدرامية التي تركّز على التأثير الآلي للتكنوقراطية الراهنة والتي تمكِّن اسرائيل، إجمالاً، من شد خيوط العالم بأسره. إذ إنه نظراً لتفُّوقها الفكري ونظراً لتقنيتها في بناء المشكلات ـ لأن اسرائيل لم تنفك يوماً عن طرح المشكلات على نفسها، فهذه قوة الرجاء بالنسبة إليها، وهي التأمل الذهني في حالته الصرف ـ يجد العرب أنفسهم حيال المطالبة بأن تكون الساميّة وقفاً على الاسرائيليين بوصفهم ساميين يمنيين، ذوي امتيازات. أمَّا هم، فإنهم بالعكس

خارجون على القانون ومستبعدون. ولأسباب عدة، وجدوا أنفسهم أعجز من أن يقوموا بالمهمة التي عرفت اسرائيل كيف تضطلع بها. ولكنني أرى أن على الأشقاء أن يجدوا سبيلاً للمصالحة. إذ إن كلا الفريقين، اسرائيل والعرب، يملكان شهادة داخلية للادلاء بها: إنها شهادة لغتهما التي هي لغة مقدسة، فضلاً عن أنها أداة بحث علمي مجرد. لقد كتبت النخبة اليهودية وفكَّرت باللغة العربية خلال العصور الوسطى بكاملها. هنا تكمن المشكلة الجوهرية»[١٣].

إن هذا الشعور النبيل لا يسعه أن يخفي عن الأذهان طبيعة هذه الموضعة، وهي طبيعة باطلة من أساسها وحافلة بالمضاعفات المؤذية.

□ **مناهج الدراسة والبحث** وهما يتحددان، لا محالة، بموجب الشعور العام:

١ ـ إن ماضي الأمم والثقافات الشرقية يشكِّل، بالطبع، حقل الدراسات الممتاز[١٤]: «فعندما يُصار إلى التسليم ضمنياً بأن أزهى الفترات التي عرفتها بلدان الشرق تنتمي إلى الماضي» يصار إلى التسليم من هنا بالذات، «إن انحطاطها أمرٌ لا مفرَّ منه». ويلاحظ «جان شينو» بحق، «أن السبيل الذي اتبعته الدراسات اليونانية ـ اللاتينية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم انبعاثها بوصفها دراسات لحضارات «ميّتة»، انقطعت صلاتها تماماً مع ورثتها المعاصرين، كانا يوفران للمستشرقين نموذجاً بارزاً»[١٥]

٢ ـ ويدرس هذا الماضي نفسه، من حيث أوجهه الثقافية ـ لا سيما اللغة والدين ـ المعزولة عن التطوُّر الاجتماعي. وإذا كانت الهجمة العامة التي شنّتها اللاعقلانية بعد هيجل وضده في أوروبا، تفسر التشديد على الظاهرة الدينية، بل على **هالتها** شبه النفسية الباطنية، فإن انبعاث دراسات العصور القديمة، في نهاية القرن الماضي، على ضوء المنهج التاريخي ـ لا سيما فقه اللغة التاريخي ـ هو الذي يفسر الأولوية التي أولاها المستشرقون التقليديون للدراسات الألسنية واللغوية، لكن دراسة اللغات الشرقية **الحية** ـ كالعربية مثلاً ـ بوصفها لغات ميّتة، قد ولَّد عدداً كبيراً من الأخطاء والتفسيرات المقلوبة والمغالطات، كمن يحاول أن يقدِّم شرحاً للغة الفرنسية (لغة «مارتن دو غارد» و «سارتر» و «اراغون») انطلاقاً من مجرد معرفته بكتاب «أناشيد الإيماء»، أو أن يقدِّم تغليقاً على انكليزية «شاو» أو «راسل» انطلاقاً من الساكسونية، أو نقداً لايطالية «كروس» و «غرامشي» و «مورافيا» انطلاقاً من لاتينية الكنيسة[١٦].

٣ ـ وبعد أن يُدرس التاريخ بوصفه «بنية»، يُعكس في أفضل الحالات على الحاضر القريب. فيبدو هذا الحاضر بمثابة امتداد للماضي الذي كان متألقاً وانطفأ. وهكذا، بدلاً من أن يكون التاريخ تأريخياً، يصبح أمراً غريباً مثيراً للاستهجان.

٤ ـ أمَّا العمل العلمي الذي قام به علماء مختلف البلدان الشرقية، فلا يُنبس حوله ببنت شفة، بل يتجاهل في معظم الأحيان تجاهلاً تاماً إلاَّ في ما ندر من الأعمال التي تسير باتجاه استشراق المراكز اللغوية. أمَّا الباقي فيوصف بأنه لا قيمة له ويُغمط حقه، بينما يصبح التأخر المعزوُّ للشروط التاريخية، لا سيما الاستعمار، خاصة من الخصائص المميِّزة والمكونة للذهنيات الشرقية.

□ **أدوات الدراسة والبحث:**

١ ـ تتكون هذه الأدوات، بالدرجة الأولى، عبر تراكم وتركُّز الثروات العائدة لبلدان آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية في المدن الاوروبية الكبرى: فتاريخ متحفي «غيمه Guimet» و«سرنوشي Cernuschi» في باريس، وتاريخ المجموعات الكبيرة في المتحف البريطاني، مثلاً، يسيران على نفس الخط، الذي هو خط هجرة الكنوز والأدمغة العلمية من أوروبا باتجاه الولايات المتحدة، منذ عام (١٩١٩)، (سواء تمَّت هذه الهجرة تحت وطأة الإغراء أم تحت وطأة القوة). أمَّا بالنسبة للدراسات العربية على وجه الخصوص، فالوضع فريد في خطورته: عشرات الالاف من المخطوطات (وهناك من يقول إن عددها ١٤٠,٠٠٠) توجد خارج العالم العربي، أي ـ من الناحية العلمية ـ بمنأى عن متناول الباحثين العرب أنفسهم. من هنا، إن على هؤلاء الباحثين أن يعملوا، في معظم الأحيان، على مصادر غير مباشرة تعالج صلب التاريخ القومي والثقافي الذي هو تاريخهم. وقد عملت عصبة الأمم المتحدة ـ إلى جانب دول عدة، لا سيما مصر ـ على إنشاء هيئات وإصدار مطبوعات ووضع مشاريع تستهدف إعادة هذه المصادر الفريدة إلى العالم العربي[١٧].

٢ ـ أمَّا بالنسبة للتاريخ الحديث والمعاصر، فإن الجزء الأكبر، بل الجوهري، من المواد التي تتعلَّق بالبلدان المستعْمَرَة والتابعة (لا سيما الهند ومصر والشرق الأدنى العربي والمغرب وافريقيا السوداء... إلخ.)، والتي توجد في أراشيف الدولة لدى القوى الاستعمارية السابقة الكبرى، فيستحيل الوصول إليها في معظم الأحيان، نظراً لمختلف أنواع الحظر والمنع التي تُحاط بها (وأقلها شراً قاعدة السنوات الخمسين الشهيرة). وهكذا تتطاول المعرفة التقريبية بالماضي، وتمتدّ حتى تصبح استقصاءً أو بحثاً عن الذات تعتورُه الثغرات المحفوفة بالمخاطر.

٣ ـ والمصادر الثانوية المستعملة من قبل المستشرقين الغربيين التقليديين ـ تقارير الادارات الاستعمارية[١٨]، والبعثات الدينية الكاثوليكية والبروتستانتية[١٩]، احصاءات وتقارير مجالس إدارة الشركات، أخبار الرحلات... إلخ. ـ فهي مصبوغة صبغاً شديداً بكل منوعات العرقية والعنصرية. ويتصف أكثرها اعتدالاً بالغرابة وبالمنحى الأبوي. هكذا يدرك المرء أن هذه المصادر الثانوية، رغم تقديمها لعدد من المعطيات الأخرى، ولا تصلح بأي حال من الأحوال لدعم عمل يتوخَّى البحث العلمي.

هذه هي الخصائص الرئيسية للاستشراق التقليدي، الذي مثّل مجمل المنحى الاستشراقي حتى نهاية حرب (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، والذي ما زال يحتل مركزاً مرموقاً حتى أيامنا هذه.

بيد ان نهضة الأمم والشعوب في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية، منذ أواخر القرن التاسع عشر، وتسارع عملية النهضة هذه تسارعاً شديداً بفعل الانتصارات التي حققتها حركات التحرر القومي في العالم المستعمر سابقاً، بالإضافة إلى ظهور مجموعة من الدول الاشتراكية وما نشأ عن ذلك من تمايز بين « الاوروبيتين »[٢٠]، قد جاءت جميعاً لتطيح بالبناء الاستشراقي من أسسه. وللحال، أخذ الاختصاصيون، فضلاً عن العامة، يعون التفاوت، لا بين العلم الاستشراقي والمادة موضوع الدراسة وحسب، بل أخذوا يعون التفاوت أيضاً ـ وسيتبين لنا أن هذا أمر حاسم ـ، بين مفاهيم العلوم الانسانية والاجتماعية ومناهجها وأدوات عملها وبين تلك التي يستخدمها الاستشراق.

هكذا استُبعد الاستشراق التقليدي من قِبَل تاريخ الشرق ونهضته القومية، وأصبح مقطوعاً عن الواقع قياساً على تقدُّم البحث العلمي. فصار من اللازم بعد اليوم، أن يُعاد النظر فيه جملةً وتفصيلاً.

وجهان للاستشراق الجديد: « أوروبيَّان اثنان » يعيدان النظر في مجل الاستشراق: **أوروبا القوى الاستعمارية (وأميركا الأوروبية)، وأوروبا الدول والحركات الاشتراكية** التي ما لبثت أن رفدتها ثورات « القارات الثلاث المنسيّة »، من جمهورية الصين الشعبية إلى كوبا.

□ الاستشراق الجديد في أوروبا الغربية:

هناك وثيقتان أساسيتان ـ الدرس الافتتاحي الذي ألقاه « جاك بيرك » في « الكوليج دو فرانس (كانون الاول/ديسمبر ١٩٥٦)، والتقرير الذي وضعه « هايتر » (١٩٦١) ـ فضلاً عن أعمال منهجية عديدة، أتاحت المجال لتحليل هذا التجديد في الاستشراق التقليدي لدى القوى الغربية الاستعمارية.

□ ١ ـ التصوُّر العام: يلاحظ « **جاك بيرك** » أن « شخصية العالم (الاسلامي) تبدو قليلة الانفتاح على الغير. فهو يستثير عند من يخالطه صورة « الكهف » أو « المتاهة » . . . ، ويمتنع على الخارج، على صاحب البدعة. وهو مداور، متوعد أو فتّان، يروغ منك بالسر الغامض أو بالمسبّة أو بالإغراء. إنه يماحكك فلا يدعك تصل إليه وصولاً فعلياً، ويخفي حقيقته عنك. وهناك الكثيرون ممن يتوقفون عند هذا الحاجز الأول، فيؤخَذون بملاطفة الواقع الأخاذ، أو يقعون في فخ اللبس والإبهام، أو ينطلي عليهم ما تتزيَّا به الحركة من زي قتالي. لكن على البحث أن يتقدَّم أشواطاً تتخطَّى هذه الأمور . . . ينبغي أن نجعل أنفسنا متيقظين وحساسين، أكثر فأكثر، تجاه

القفا العربي للأمور ». والجهد المبذول من قبل « بيرك »، والذي يقدِّم لنا درسه هذا جردة أولى به، يدفعه إلى الاعتقاد « أن البلدان العربية قد تفتحت على تاريخها الحديث بعد الحرب الأولى، بل حتى بعد الثانية » وينشأ عن ذلك، كما يرى، « عصور من المراجعات المأساوية ». غير أنه يقول « إن علينا أن نتعرَّف، خلف هذه الايماءات والحركات الكثيرة، إلى الشهادة، إلى البيّنة، هذه الكلمة العزيزة على لويس ماسينيون ». فالبلبة تنتشر في كل مكان: « والتوتر يحوِّر أشكالهم. والبنى تصبح هَرُوبةً، كما تصبح تحديداتها غامضة وملتبسة. والعاطفة تطغى عندهم دائماً على الواقع الملموس، والرمز على الفعل. كل ظاهرة تتراتب عندهم وفقاً لمستويات عديدة، وكل سلوك ينبغي أن يُفهم على أكثر من صعيد. من هنا صعوبات التعبير القصوى بالنسبة لهم، وصعوبات التفسير بالنسبة لنا ». ومن الطبيعي أن تكون « هذه البنى مستعصية على الأفهام إذا ما عزلت عن سياقها التاريخي، وعن نفسية اجتماعية بكاملها ». لكن ذلك لا يحول دون إصدار الحكم القاطع بحقها[٢١]: « فبلبلة الأفكار الواسعة التي نشأت . . . كانت تقرن بنية الوجود ـ السببيات، صحيحة كانت أم خاطئة ـ قرناً غامضاً بحاجات الفؤاد وباتساع الحركة الإيمائية ». كل المحاولات « تستجيب قبل كل شيء، على ما يبدو لي، للبحث عن صلابة ما، وكثيراً ما يفتقد البحث للمهارة، ويتصف بالعمومية والتحريف. وهو يفتقد أحياناً لصدق الطوية: فليكن من حق صديق (للعرب) أن يقول ذلك على الأقل. إنه بحث يفتقد للحذاقة: متسرِّعٌ في معظم الأحيان. هكذا، فإن تحليل الأشكال السياسية القائمة حالياً، في الشرق، لا يفضي إلى مدى بعيد ». ويذكِّر « بيرك » بـ « رينان »[٢٢] مراراً، ويقول: « إن هذا التاريخ ليس تاريخاً مستقلاً . . . حتى الآن، ما زالت هذه المجموعة البشرية تمتنع عن ما سُمّي بـ « تكوين الرأي بصدد الأمور ». إذ إن التاريخ ينازعها على طعم هذه الأمور وعلى تماسكها . . . ولكن لما كانوا منهكين تحت وطأة ما سمَّاه أحد الكتاب المصريّين بـ « عبء تاريخهم »، فقد سعوا للبحث عن تأكيد ذواتهم خارج الاستمرارية، خارج المنطق، بل ربما خارج التاريخ . . . والحال، هل يمكن للمرء أن يصارع الوقائع برموز، حتى لو كانت بمثل عظمة رمز الحرية ؟ ».

بعد أن أبرز « بيرك » محصلة عدم الاستقلالية هذه ـ أي عجز الشعوب العربية والاسلامية عن تفكير ذاتها بذاتها وعن شحذ أدواتها المعرفية القادرة، وحدها، على تأسيس الفعل والتقدُّم ـ يعمد بالطبع إلى تلافي هذا النقص، لا سيِّما في كتابه « العرب من الأمس إلى الغد » الذي ظهر عام (١٩٦٠): « فالنفس العربية تحتفظ اليوم، أو أنها تبعث من جديد مرجعاً ذاتياً لها، استقلالية في الإحساس والتعبير، لم يكن يُفترض بأي سستام خارجي، مهما بلغت قدرته على الإغناء، أن ينازعها إيَّاه، فهل كان في ذلك سبب كاف يحدو بالباحث الأجنبي إلى الامتناع عن الادلاء بنظريته نظراً لكونه مشبوهاً منذ الوهلة الأولى، ومضطراً لاتخاذ آلاف أصناف الاحتراس حتى لا يجرح بعض الحساسيات المفرطة؟ على العكس، فالفائدة التي تنشأ عن مساهمته من شأنها أن

تعزّز العفوية التي استردَّها العرب. فإذا كنتُ قد تجرأت على أن أعرض عليهم سستاماً لتاريخهم المعاصر، فإنما فعلت ذلك أملاً مني بإخضاعه لحكم هذا التاريخ إياه، فكلما أثار هذا السّستام انتقادات من الداخل، كلما كان من شأنه أن يعمل على تقدُّم الذين يطمح لخدمتهم، وإذا كان يشكو على الأرجح، من كونه صادراً رغم كل شيء عن شخص أجنبي، فعزاؤه بالمقابل، أنه قادر على الانساحاب. وحظوظه من النجاح أو الفشل ليست في نهاية المطاف، سوى حظوظ هذا الاستشراق الجديد الذي يتّصف بالتجرُّد والالتزام في آن واحد »[٢٣]. غير أن ردود الفعل التي أثارتها رؤية النتاج على هذا النحو، قد ولدت بعد عامين تصحيحاً معيناً لمسارها: « لقد أشار أحد الكتاب المصريين، بصدد كتابي الأخير، إلى أنني أتوجَّه إلى القارىء الشرقي بمقدار ما أتوجه إلى القارىء الغربي. ورأى فيه حدثاً جديداً! فهل بالغ هذا الحدث الجديد في طموحاته؟ إن الدراسة المذكورة، إذا اعتُبرت من هذه الزاوية تطلَّب من موضوعها أن يتحوّل إلى مُحاور ناقد ومساهم »[٢٤]؛ وأداة هذا الاستقصاء هي الثقافة الفرنسية، « إذ إن الفرنسية، وأنا لا أرعوي اليوم عن المهاجرة بذلك، تظل هلّينية الشعوب العربية »[٢٥].

إن كتابَيْ المؤلف ـ حول العرب، ثم حول المغرب ـ يضعان جدولاً بهذه النمطية الجديدة. ولمّا كنا نهتم، هنا، بالمنهجية، فنحن لا يسعنا أن ندقّق في مسلماتها واطروحاتها، ولا بنتائجها، غير أنه يجدر بنا أن نشير إلى أن النمطية الجديدة، رغم بقائها جوهرية من حيث نواتها المركزية، تمتاز بأنها تأخذ العامل الاقتصادي بعين الاعتبار[٢٦].

أمّا طرح المشكلة في العالم الانكلو ـ ساكسوني فمختلف. في عام (١٩٤٦) أُسّسَ « معهد الشرق الأوسط » في واشنطن، وما لبث أن أُتبع عام (١٩٤٩) بـ « مجلس الشؤون الشرق أوسطية » في نيويورك. في عام (١٩٤٧) عمدت لجنة « سكاربورغ Scarborough »، بناء على مشورة من « **أ. أربري** » إلى الشروع بتجديد الاستشراق في بريطانيا: إذ كانت نهاية الحرب تُملي الاضطلاع « بالمسؤوليات التي تظل ملقاة على عاتقنا في المستعمرات، وبعلاقاتنا مع دول الدومينيون، وهي دول قريبة من شعوب آسيا وافريقيا، فضلاً عن علاقاتنا الجديدة بالهند وبرمانيا وسيلان ». ويوجه التقرير نقداً صريحاً لـ « المحورية الاوروبية »، ويشير إلى أن تأخر الدراسات الشرقية في بريطانيا العظمى، قياساً على فرنسا والمانيا وايطاليا وهولندا والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، « لا يتفق كما يجب مع وضعنا كقوة عظمى، ولا يتلاءم مع مسؤولياتنا الامبراطورية ». فينبغي تنظيم دراسات حديثة لمساعدة العلميّين بشكل خاص، من أطباء ومهندسين واقتصاديين، ممن يرغبون في تكريس جهدهم للشرق، ويودون الارتباط به ارتباطاً صحيحاً[٢٧].

بعد أربع سنوات، جاء رد فعل لجنة « هايتر » رداً عنيفاً وسياسياً يندد بوضع ما زال مخيّباً للآمال. بما أن مركز الثقل في العالم قد انتقل من أوروبا، فإن الأهمية الراهنة لا ينبغي أن تُعوّل على علماء اللغة، بل على

الأدب ليس الذي يجلس في الطائرة أو في السيّارة، ويصف لنا ما تراه عيناه من مشاهد. والرحّالة ليس الذي يأتي إلى منطقة معيّنة ورأسه محشو بالأفكار المسبقة. فلكي نفهم شعباً، يجب أن نعيش معه، ونحتك بكل طبقاته، ونستمع إلى الناس في همومهم ومشاكلهم لكي يتسنّى لنا فهم ردات الفعل عندهم. في هذه الحال، يصبح الرحّالة أخاً لكل الشعوب، يعرف كيف يطيّب الجراح، ويهدّىء الأحقاد ويكون رابطاً بين شعوب ذات حضارات مختلفة.

هذه الثغرة لفهم الشرق، سيسدُّها لحسن الحظ، وإن جزئياً، روائيو هذه الحقبة، الذين اختاروا لقصصهم أبطالاً وأشخاصاً شرقيين فأثبتوا فهمهم واستيعابهم للنفسية الشرقية بكل أبعادها، نذكر منهم: **فرانسوا بونجان، مريم هاري، بيار بنوا...** وغيرهم.

الحواشي.

(١) Xavier MARMIER: Voyageurs nouveaux, Paris, Arthus Bertrand 1851; (P.369).

(٢) Edmond ABOUT: Le Fellah, Paris Hachette 1960.

(٣) Maxime Guffroy: Six mois au Liban, Marseille 1892.

(٤) Georges MONTBARD: En Egypte, Paris 1982.

(٥) Lowis BERTRAND: Le mirage oriental, Paris, Perrin 1910, (P.60).

(٦) Ibid (P.28).

(٧) Cf. Henry BORDEAUX: Dans la montagne des Druzes, Paris, Plon 1926; (P.79).

(٨) Henry BORDEAUX: Histoire d'une vie, T. VIII; Paris, Plon 1962, (P.159).

(٩) René VANLANDE: Le Chambardement oriental, Paris, Peyronnet 1932; (P.238).

(١٠) Paul NOURISSON: Visions de Pèlerinage, Paris, Le coffre 1928; (P.8).

(١١) A. KAMMERER: Pétra la Transjordanie et l'Arabie pétrée en automobile, Paris, 1926; (P.8).

(١٢) F. CUDEL: Souvenirs de Terre Sainte, d'Egypte et de Syrie, Paris 1924; (P.38).

(١٣) L.H. Bouzou: Sur les Chemins du Proche-Orient, Paris, Le thielleus 1936.

(١٤) Jacques LE-VAN-DUC: Voyage en Orient, Quinhon 1924.

(١٥) R. LAURENT-VIBERT: l'Orient en Mai 1923, Lyon, Audin, 1923.

(١٦) Maurice HONORE: Vers Bagdad, Paris, Pierre Roger 1929.

(١٧) Joseph KESSEL: En Syrie Paris, Kra 1927.

(١٨) Abel MOREAU: Sur les routes de Syrie; Paris, Vulliez 1924.

(١٩) CF.. - GABRIEL HANPTAUX: Regards sur l'égypte et la Palestine, Paris, Plon 1929.
- A. KAMMERER Pétra, la Transjordanie et l'Arabie pétrée en autombile, Paris 1926.

- Charles BEAUGE: Egypte et Syrie, Paysages, ruines et Souvenirs, Alencon 1930.

Henry CHAMPLY: Le Pèlerin de Vénus, croisière páïenne en Orient; Paris, Charpentier 1930. (٢٠)

Henry CHAMPLY: op. cit., (P.151). (٢١)

Mgr. GRENTE: Une mission dans le Levant, Tours 1926. (٢٢)

Abbé Charles GUERY: Quelques semaines en Orient, Evreux 1922. (٢٣)

L. de PAÏNI: En Palestine, Paris-éditions du Loup 1930. (٢٤)

Georges LAUGA: La Terre qui parle, Paris-éditions de la Cause 1929. (٢٥)

F. CUDEL: Souvenirs et impressions de Terre Sainte, d'Egypte et de Syrie, Paris-imprimerie de la Renaissance 1924. (٢٦)

Paul NOURISSON: Visions de Pèlerinage Paris, Le coffre 1928. (٢٧)

Robert VALLERY-RADOT: La Terre de Vision; Paris, Perrin 1924. (٢٨)

Gérôme et Jean THARAUD: --Le Chemin de Damas Paris, Plon 1923. (٢٩)

-- Alerte en Syrie; Paris, Plon 1937.

Albert FINET: Au Pays de la Bible, Paris, SCEL 1932. (٣٠)

Maurice PERNOT: l'Inquiétude de l'Orient, (2 tomes), Paris Hachette 1927. (٣١)

Marie-Thérèse GADALA: Egypte, Palestine, du Sphinx à la croix ; Paris, Arthaud 1932. (P.9). (٣٢)

J.J. THARAUD: Le Chemin de Damas; Paris, Plon 1923; (P.106). (٣٣)

J.J. THARAUD: Le Chemin de Damas.. (P.72). (٣٤)

CF: -- Albert FINET: Au Pays de la Bible; (PP.65-66). (٣٥)

-- Roland DORGELES: La Caravane sans chameaux (PP.126-132).

J.J. THARAUD: Le chemin de Damas... (P.98). (٣٦)

René VANLANDE: Le chambardement oriental.. (P.287). (٣٧)

Ibid. (P.289). (٣٨)

Claude DERVENN: Sur les Routes du Levant.. (P.281). (٣٩)

Pierre LAMAZIERE: Partant Pour la Syrie, (P.231). (٤٠)

René VANLANDE: op. cit., (P.203). (٤١)

Max de SAINT-FELIX: op. cit., (P.158). (٤٢)

Maurice PERNOT: L'inquiétude de l'Orient- t. II., Paris, Hachette 1927; (P.215). (٤٣)

Robert de TRAZ le dépaysement Oriental, Paris, Grasset 1926; (P.82). (٤٤)

J.J. THARAUD: Alerte en Syrie.. (PP.168-169). (٤٥)

Robert de TRAZ: op. cit., (P.90). (٤٦)

Maurice PERNOT: op. c.t., t.2; (P.166). (٤٧)

Pierre LA MAZIERE: op. cit., (P.69). (٤٨)

Robert DETRAZ: op. cit., (P.87). (٤٩)

Roland DORGELES: La caravane sans chameaux.. (P.297). (٥٠)

لائحة بأسماء الرحّالة والكتب التي
أصدروها ما بين حربي ١٩١٤ و١٩٣٩

– **Beaugé, Charles:** Egypte et Syrie, paysages, ruines et souvenirs. Alençon 1930.

– **Bordeaux, Henry:** -Dans la montagne des Druzes. Paris, Plon 1926.
-Voyageurs d'Orient. Paris, Plon 1926.
-L'histoire d'une vie (t. VIII) Paris, Plon 1962.

– **Bouzou, L.H.:** Sur les chemins du Proche-Orient. Paris, Le thielleux 1936.

– Carbillet (Capitaine): Au djebel druse. Paris, Argo 1929.

– **Catroux (Général):** Deux missions au Moyen-Orient (1919- 1922) Paris, Plon 1958.

– **Champly, Henry:** Le Pelerin de Vénus, croisière païenne en Orient. Paris, Charpentier 1930.

– **Cudel, F.:** Souvenirs et impressions de Terre Sainte, d'Egypte et de Syrie. Paris, imprimerie de la Renaissance 1924.

– **Dervenn,** Claude: Sur les routes du Levant. Hanoï 1941.

– **Dorgelès, Roland:** La caravane sans chameaux. Paris, Albin Michel 1928.

– **Finet, Albert:** Au pays de la Bible. Paris S.C.E.L. 1932.

– **Gadala, Marie-Thérèse:** Egypte, Palestine, du Sphinx à la Croix. Paris, Arthaud 1932.

– **Geiger, André:** -Syrie et Liban. Grenoble, Arthaud 1932.
-En Syrie et au Liban Paris, Arthaud 1942.

– **Gontaut-Biron (Comte R. de):**
-Sur les routes de Syrie. Paris, Plon 1928.
-Comment la France s'est installée en Syrie. Paris, Plon 1922.

– **Grente (Mgr.):** Une mission dans le Levant. Tours 1926.

– **Guery, Abbé Charles:** Quelques semaines en Orient. Evreux 1922.

– **Hanotaux, Gabriel:** Regards sur l'Egypte et la Palestine. Paris, Plon 1929.

– **Harry, Myriam:** Terre d'Adonis. Paris, Flammarion 1930.

– **Honoré, Maurice:** Vers Bagdad. Paris, Pierre Roger 1929.

– **Kammerer, A.:** Pétra, la Transjordanie et l'Arabie pétrée en automobile. Paris, Société de Géographie 1926.

– **Kessel, Joseph:** En Syrie. Paris, Kra 1927.

– **Lauga, Georges:** La terre qui parle. Paris, Editions de la Cause 1929.

– **Laurent-Vibert, R.:** L'Orient en Mai 1923. Lyon, Audin 1923.

– **Le-Van-Duc, Jacques:** Voyage en Orient. Quinhon 1924.

– **Mauclair, Camille:** De Jérusalem à Istambul. Paris, Grasset 1939.

– **Mazière, Pierre la:** Partant pour la Syrie. Paris, Baudinière 1926.

– **Melia, Jean:** Chez les Chrétiens d'Orient. Paris, Fasquelle 1929.

— **Nourisson, Paul:** Visions de pèlerinage. Paris, Le Coffre 1928.
— **Païni, L. de:** En Palestine. Paris, Editions du Loup 1930.
— **Pernot, Maurice:** L'inquiétude de l'Orient (2 tomes). Paris, Hachette 1927.
— **Pichon, Jean:** Le partage du Proche-Orient. Paris, Peyronnet 1938.
— **Pouleau, Alice:** A Damas sous les bombes. Paris, Yvelot 1928.
— **Saint-Félix, Max de:** A travers l'Orient. Paris, Figuière 1931.
— **Tharaud, Jérôme et Jean:**
-Le chemin de Damas. Paris, Plon 1923.
-Alerte en Syrie. Paris, Plon 1937.
— Traz, Robert de: Le dépaysement oriental. Paris, Grasset 1926.
— **Vallery-Radot, Robert:** La terre de vision. Paris, Perrin 1924.
— **Vanlande, René:** Le chambardement oriental. Paris, Peyronnet 1932.